الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie

جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

محاضرات في مبادئ الموسيقى

الدكتور عبد الرزاق بلبشير

السنة الأولى جذع مشترك فنون تشكيلية

العام الجامعي:2020-2021

و قد توفرت فيها الآلات الموسيقية بأنواعها الثلاثة:

- الآلات الإيقاعية [آلات النقر]: فمن آلاتها المصفقات على اختلاف أنواعها، وأهمها القضبان والأذرع و الألواح و كذا الأجراس و الجلاجل و المخشخشات
- الآلات النفخية: فمن آلاتها الناي بنوعيه الطويل والقصير و الزمارة المزدوجة.
- الآلات الوترية: فإن الآلة الوحيدة التي كشفت عنها نقوش تلك الدولة من هذا النوع هي آلة الصنج أو الجنك* وكانت من النوع المنحني أو المقوس[1].

كان الشعر والموسيقى عند قدماء المصريين فنا واحدا، وكان الشعر الملحن مرشد الشعب ومدرسته يبث فيه روح المدنية، بقوم بشرح مختلف القوانين المدنية وأحكام الديانة وأصول الفلسفة والتاريخ والعلوم. وكانت الموسيقى عند قدماء المصريين فنا محترما ومقدسا يعتقدون اتصاله بالعلوم المقدسة الأخرى وبخاصة الديانة وعلم الفلك. ولقد استطاع المصريون أن يجمعوا بين الموسيقى وعلم الفلك وذلك بتدوين النغمات الموسيقية التي يتألف منها السلم الموسيقي ، بأن رمزوا لكل نغمة من النغمات السبع المعروفة بالرمز الهيلوغريفي*الذي كان يرمزون به إلى الكواكب. أما الرقص والإيقاع في مصر القديمة فقد كان أحد الوسائل للتعبير عن المشاعر سواء كانت دينية أم نفسية.وقد كشفت الآثار المصرية عن أنواع النشاط الذي كان يمارس عند الفراعنة في أوقات فراغهم مثل صيد الطيور والرماية وحفلات الرقص والموسيقى، كما كانت هناك أنواع متعددة من الرقص لمناسبات عدة منها: الرقص عند الدفن والرقص الديني في المواسم والأعياد والرقص للحروب لغرض إشعال الروح االحماسية في نفوس الجنود [2]

ب /الموسيقى الآشورية.

بين بادية الشام و مرتفعات إيران منخفض صحراوي يعبره نهرا دجلة و الفرات فيحولانه إلى سهل خصيب، وهذا السهل الذي يسمى اليوم العراق، عرف أقدم الحضارات في العالم، حيث شيد السومريون أول حضارة في بلاد ما بين النهرين، وتركوا تراثا فنيا وفكريا ودينيا، ثم تتالت هجرات القبائل السامية من بلاد أمور وأكاد ثم بابل. وبعد البابليين سيطر الآشوريون واتخذوا آشور ثم نينوى

* الجنك: آلة موسيقية وترية قديمة

عاصمة لهم [1] وككل شعب بدائي قدس السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها، ثم طوروا معتقداتهم وجعلوا الآلهة على صورة البشر, و لم يفصلوا بين الدين والفنون. فالفن عندهم قائم على خدمة العقائد و مسخر لها. وأقدم آلة أثرية اكتشفت في بلاد الرافدين هي قيتارة سومر التي اعتبرها علماء الآثار من أهم الآلات الرئيسية في تاريخ الموسيقى القديمة عامة, و التي دلت على ما للسومريين من رقي وحضارة فنية وموسيقية بالغة السمو و الجمال.[2] لقد استخدم الآشوريون آلة الصنج أو الجنك,وهي آلة تشبه آلة الصنج المصري، أوتاره مصنوعة من الحرير أو أمعاء الحيوان, وكانت هذه الآلة تستخدم لمصاحبة الأغاني و الأناشيد، كما استخدموا آلة الكنارة التي ينسب اختراعها إلى أحد الآلهة حينما أستخدم ظهر السلحفاة في صناعة الآلة. وقد اقتبس الهكسوس آلة الكنارة الآشورية ،كما استخدم الآشوريون آلة السنطور التي يعزف عليها بمضرب خشبي باليد اليمنى، وهي تشبه آلة القانون العربية.و هناك آلة الطنبور المعروفة بالرقبة الطويلة، وهي تشبه العود الفرعوني [3] و من آلات النفخ، استخدم الآشوريون المزمار المزدوج والبوق بأنواعه والناي وآلة فخارية تشبه الأوكارينا، كما استخدموا أنواع الطبول المختلفة والدفوف و الكاسات و الأجراس. ويظهر في صورهم المنقوشة أنهم كانوا يستخدمون الأجراس و الجلاجل وهم يرقصون أو يدقون بأرجلهم. [4]

كان الآشوريون يستقبلون المحاربين العائدين إلى أرض الوطن بالرقص و الأناشيد للتعبير عن بهجتهم وسرورهم. و لم يكن للرقص مكانة في هذا المجتمع مثلما كان عليه في مصر القديمة، و لم تصل الفنون الآشورية إلى الدرجة الرفيعة التي وصلت إليها في المجتمع الفرعوني، إلا أن الآشوريين يعتبرون الجسر الذي وصلت به موسيقى الحضارة المصرية إلى المدنية العربية.

جـ – الموسيقى الفينيقية:

الفينيقيون فئة من قبائل سامية عرفت بالكنعانيين نزحت عن شبه الجزيرة العربية في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، و اتجهت نحو الغرب حيث استقرت بجوار البحر المتوسط [1] الفينيقيون لم يعرفوا فنا كنعانيا مستقلا من حيث موضوعاته و جوهره بل اقتبسوا معالم المدنية عن جيرانهم من مصريين و بابليين وآشوريين [2] . شغف الفينيقيون بالموسيقى و الرقص لما لهما من دور في العبادة، فأسسوا ألحانا، ثم وزعوها مع آلات طربهم في جميع البلدان المجاورة لهم، ويعود إليهم الفضل في إتقان العزف على العود والدربوكة و الناي. و منهم استوحى داود النبي عليه السلام عندما لحن مزاميره وأدخل الغناء إلى العبادة العبرانية. و مثلما شغف الفينيقيون بالغناء كذلك برعوا في الرقص. و اتخذوا من " بعل مرقد " إلها للرقص. و في أعياد أدونيس طالما نقلهم الغناء و الموسيقي الإيقاعية إلى حالة النشوة . فتبارى الراقصون بالسيوف و الخناجر، و أصابوا أجسادهم حتى نزف منها الدم. و وزعوا الرقص في ثلاثة أدوار: أولها الرقص المنفرد و قد انتشر الرقص الفينيقي لدى العبرانيين. فداود النبي عندما رقص أمام تابوت العهد، أو شمشون الجبار عندما رقص أمام الفلسطينيين إنما قلدا الرقصات الرائجة في فينيقيا [3] .

د – الموسيقي اليونانية:

كانت الموسيقى عند اليونان فنا مقدسا ،و يعتقدون أن موجدها الإله أبولو، و من أهم الآلات عندهم الكنارة و هي آلة وترية فرعونية الأصل، استعملوا منها نوعين أولهما ثقيل ومتين الصنع يستعمله المحترفون و هو ما يسمى " الليـــر " و نوع خفيف الوزن بسيط الصناعة يستعمله الهواة و يعرف بالقيثارة و استعملوا أيضا المزمار المزدوج و الأولوس والفلوت و آلة السير ينكس والهارب [4] .لقد أجمع المؤرخون على القول: أنه لولا اليونان لما عرف العالم القديم أنواع التأليف التي بنيت عليها الموسيقى ولا نسب الأصوات و تركيب الدواوين والنظريات الموسيقية [5] وكانت تبني الألحان على أساس التراكورد أي أربعة أصوات ،و لم يكن التدوين الموسيقى عندهم إلا مجرد هيكل عام للحن يتصرف فيه العازف كما يشاء وفق مقدرته و موهبته.

ظهر عند اليونان الشعر القصصي لأن إلياذة هوميروس لا تخلوا من مشاهد تمثيلية [1] ولكن الشعراء بدأوا في نظمهم أولا بالشعر الخيالي التصويري المحض، و كانوا يغنون للآلهة ويرقصون في غنائهم على توقيع الألحان ،فتصوروا الوزن من حركات الرقص و ذلك أصل النظم عندهم ، فصاروا في حاجة إلى شعراء يحضونهم على الثبات في الحرب و يمدحون سبالتهم و يصفون حضارتهم ، فصار ملوك اليونان يقربون الشعراء الغنائيين لسماع المدح و شاع الشعر الغنائي والموسيقى فيهم [2] . كانت الموسيقى عند اليونان أساس بناء نظريات التربية و بناء الدولة، و ركنا هاما للثقافة وأساسا تبنى عليه نظريات التربية، كما هو واضح في مصنف أفلاطون عن المدينة الفاضلة: على أنه لابد من تهذيب العقل و الروح بالموسيقي ثم الجسم بالرياضة حيث كانت الموسيقى إلزامية كما كانت إجبارية على أهل أثينا و إسبارطة * و كان المواطن في أثينا يمارس الفن و الشعر والموسيقى و النحت و الفلسفة. وقد دلت آثارهم على وجود هذه الأنشطة [3].

حب الشعب اليوناني و شغفه بالموسيقى و غيرها من الفنون الجميلة كالنحت و الخزف ليس له حد، فالموسيقى تسري في عروقه و روحه فهو يمجدها و يقدسها و يعتبرها منالقدم.عوامل التي تهذب الأخلاق و تثقف الشعب و ترفع به إلى أسمى المعالي و هي أساس متين لبناء الدولة [4] . وكان الفضل في نهجهم هذا لفيلسوفهم الأكبر أفلاطون الذي أوصاهم بالعناية بالموسيقى عناية أولية.و للأمة اليونانية فضل كبير ليس على موسيقاها فحسب، بل على موسيقات العالم أجمع لما ابتكرته هذه الأمة للموسيقى من بحوث و نظريات و أنظمة كالتدوين الموسيقى القديم.

و قد كان معتقدا أن فيتاغورت هو الأب الأول لتلك البحوث. و كذلك لاسوس أول من فكر في الاهتزازات الصوتية و تموجات الهواء و الترددات الصوتية[5]. و هناك مؤلفات وبحوث للآخرين تشمل النغم و الإيقاع. و طريقة استعمال الإشارات و الرموز في التدوين الموسيقى و للتعبير عن جميع الحركات الموسيقية و ما يتطلبه الفن كتحديد الأزمنة و علامات التحويل و غير ذلك من التحسينات الكثيرة التي أدخلها على الموسيقى .

هـ – الموسيقى الرومانية:

الرومان تعني في الأصل سكان مدينة روما بإيطاليا، في البداية لم يبد الرومان بالرغم من مجاورتهم للإغريق أي حماس للأدب و الفن و رغم ذلك ورث الرومان عن اليونان موسيقاهم وألحانهم و قواعدها و آلاتها و إن كانوا قد عجزوا عن المحافظة على المستوى الفني الذي بلغه اليونان نظرا لأنهم كانوا شعبا غير موسيقي الطبع، فلم تعد الموسيقى أداة للتربية و التهذيب بل أصبحت لمجرد اللهو التسلية، فلم يعد الشعراء يلحنون أغانيهم بل كانوا يعمدون إلى الموسيقيين المحترفين ليقوموا لهم بذلك.

لقد انشغل الرومان بالحرب فأهملوا الموسيقى لذا بقيت الموسيقى عندهم بدائية، و قد اتخذ الترويح عند الرومان طابعا يتسم بالعنف و الحروب و لم يعطوا أي اهتمام بالإعداد الثقافي والفني مثل اليونان ، رغم ذلك ازدهرت الموسيقى الرومانية و بلغت أوج مجدها في القرن السادس للمسيح، وكان ذلك بفضل علمائها و أشهرهم بوتيوس BOE THIUS و كاسيودوروس CASIO DORUS الذي ألف دائرة المعارف الموسيقية في ذلك العصر [1].

عرف الرومان الأنواع الثلاثة من الآلات: الوترية، النفخية، الإيقاعية، ومن أهم الآلات الوترية المستعملة عندهم: الكنارة و هي آلة قديمة قليلة الاستعمال، عكس الآلات النفخية التي كانت تستعمل في سير الجيوش العسكرية و تنظيم خطاها و وسيلة لنقل التعليمات و الأوامر والإشارات الحربية وأهمها: البوق منه المستقيم و يشبه البوق المصري القديم و منه الملتوي على شكل قرن الحيوان و هو كبير الحجم و المزمار المزدوج الذي كان يستخدم في مصاحبة الغناء تماما كما كان في الممالك الأخرى [2]. ظل الرومان بعد تأسيس دولتهم في جمود أدبي و فني و لم يظهر فيهم شاعر حتى كانت الحروب مع القرطاجيين، فتفتقت قرائحهم و ظهر فيهم الشعر الغنائي [3]. كان الرومان أشد عنفا في لعبهم من اليونان و كان الغرض من اللعب هو تدريب الجنود، والنشاط الترويحي لم يكن يؤدي إلى النمو و الإبداع و التطور للأفراد و المجتمع، بل كان نوعا من العروض البربرية الدموية [4].

ء و – الموسيقى الهندية:

الهنود القدماء لم ينظموا أناشيدهم إلا بعد ما لاقوه من الحروب و التنازع[1] وكانوا يعتقدون أن الموسيقى ترتبط بالدين ارتباطا وثيقا، إذ كانوا يعتقدون أن الموسيقى هبة من الآلهة مباشرة ولها في ذلك أساطير قديمة وهي ذلك الفن السماوي بما فيه من سحر ورقة.[2]

و الهنود ينفردون عن العالم بتقسيم الديوان الموسيقي الواحد إلى 22 بعدا صغيرا, أما المسافات الموسيقية بين النغمات السبع الأساسية فهي ثلاثة أنواع: كبيرة و متوسطة وصغيرة. و الواضح أن الموسيقى الهندية في نظام مقاماتها و تقسيم أبعاد ديوانها, قريبة من الموسيقى العربية من حيث عناصرها الأساسية اللحن و الإيقاع.

أما أسماء علامات السلم الموسيقي الهندي فهي كالتالي.[3]:

ساـ	ـري	ـجا	ـما	ـبا	ـدا	ـني
دو	ري	مي	فا	صول	لا	سي

أهم الآلات الموسيقية المستعملة في الموسيقى الهندية: آلة الفينا *المقدسة عندهم، وهي الأوسع انتشارا، وآلة الماجودي، وتشبه الطنبور العربي. ومن آلاتهم الأخرى التنبور، وتشبه الطنبور. وآلة السيراند[4] وهي من الآلات الوترية ذات القوس و تشبه الفيولا. أما آلات النفخ و الإيقاع فهي كثيرة و متعددة لا تخرج في مجموعها عن الشائع استعماله في المماليك الأخرى.

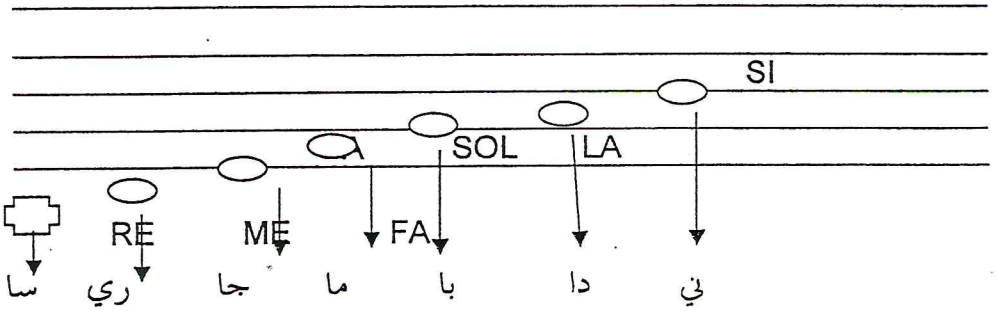

ز – الموسيقى الصينية:

لقد وجدت الديانة البوذية بين شعوب المنطقة من شرق أسيا و الواقعة بين الهند و الصين في المعتقدات والعادات وجعلتها تحافظ عليها ألاف السنين دون تعديل يذكر، وبذلك تستند الموسيقى الصينية إلى عاملين هما الروح و المادة.

والسلم الموسيقى الصيني خماسي الأبعاد و قد استخرج الصينيون السلم الموسيقي الخماسي، فاستعمال آلة الصفار و هي أنابيب مفتوحة من طرف واحد تعطى أصوات: فا – صول – لا – دو – ري.
السلم الموسيقي عندهم يتكون من 12 صوتا، و تعتبر العلامة فا: درجة الأساس والعلامة ري جواب الأساس، و من مجمل الآلات الإيقاعية المستعملة عندهم:

آلة الطبل الكبير: **هيوكو**، كان يستعمل في القصر الإمبراطوري و هو ضخم الحجم و صوته يشبه صوت الرعد، و الطبل الصغير: باكو و صنج الصيني الذي يصنع من النحاس الذي يصدر السلم الموسيقي الصيني، كما استعملوا أيضا الأجراس الضخمة و من آلاتهم الوترية الشي SHIو معناها العجيب تشبه آلة القانون العربية [1]. و من آلاتهم الأخرى النفخية الناي و المزمار و الشينغ*.
كان الايقاع و الرقص في الصين يمثل جانبا رئيسيا ضمن المهارات الأساسية للشباب، وكان الرقص الصيني طابعه ديني و الهجومي و الدفاعي، ثم أصبح الرقص مادة تدرس في المدارس [2].
- بعد الميلاد عرفت الموسيقى طريقتين واضحين تمثلا بطريق الموسيقى الأوروبية، و الثاني طريق الموسيقى العربية الذي عاش و ترعرع في أحضان الجزيرة العربية و بلاد العراق و الشام والأندلس.

ثانيا: موسيقى الشعوب القديمة:

طالما اجتهد العلماء و المؤرخون و أساتذة التاريخ و علم الآثار أنفسهم بحثا و تنقيبا عن أص الموسيقى فزعم بعضهم أن أصلها الهند، و زعم فريق آخر من العلماء أنها نشأت في بابل مدينة الس والشعوذة، و أكد بعضهم أنها ولدت في مصر مهد الحضارة الإنسانية، و كانت آخر مزاعم المنقبي المؤرخين عن أصل الموسيقى هو أنها نشأت في منازل السحرة و أكواخ المشعوذين والكهانة العرافة فالكهان عندهم هم أهل العلم و الفلسفة و الطب و القضاء و الدين، نشأت تلك الطبقة من البش عند سائر الأمم القديمة في بابل وفينيقية ومصر و غيرها [1]. و من موسيقى الكهان و السحر القدي ولد الغناء، وفن إيقاع الموسيقى خلق مع الإنسان، و لم تكن الموسيقى عند الشعوب القديمة فنا أو علما قائما بذاته بل كانت عبارة عن أصوات غير مهذبة بلا قانون و قواعد علمية، خصائصها التوازن البدائي الساذج الذي عرفه الإنسان القديم بفطرته و سجيته.[2]

أ-الموسيقى الفرعونية:

توثقت الصلة بين الفن و الدين, بل كان الدين سببا في انطلاقة الفنون وعلى رأسها الموسيقى, وكانت الأبنية الدينية كالمقابر والهياكل، من أعظم الآثار المصرية، و تعد ثورة أخناتون الدينية فاتحة التحرر الفني في مصر القديمة.[3] فغدت التماثيل والفنون أعمق تعبيرا بعيدة عن الجمود،قريبة من واقع صاحبها و نفسيته, وفي هذا دلالة على أن الفنان المصري لم تعوزه المقدرة لو ترك حرا في ممارسة فنه.

الآلات الموسيقية الفرعونية:

اشتغل قدماء مصر بالموسيقى حوالي عام 3200 ق.م. منذ عهد خوفو، حيث كانت فبها مدنية موسيقية مهذبة، وكانت عناصر الفرقة الموسيقية عندهم ثلاثة: المغني وعازف الجنك وعازف الناي، وإن العثور على صور لآلة الجنك أوالناي في آثار الأسرة الأولى يدل على رقي الموسيقىبدليل أن صناعة آلة وترية تتطلب معرفة واسعة وخبرة طويلة لتركيب وتجهيز الصندوق المصوِّت للآلة وكذا طول الوتر ونوعه، ثم كيفية ضبطه و العزف عليه.وإن نقوش وآثار الحضارة الفرعونية لتفصح عن مدنية موسيقية ناضجة،كما أن آلاتها الموسيقية قد نم صنعها وتكوينها، وتخطت أطوار نشأتها الأولى

1- جرجي زيدان- تا

ثالثا: تاريخ الموسيقى العربية.

عندما انطلق عرب الحجاز في فتوحاتهم بعد الإسلام، لم يكن لديهم, خلافا لإخوانهم عرب الجنوب و الشمال، من الفنون سوى الشعر. فحياتهم البدوية و تجارتهم المحدودة لم تمكنهم من الوصول إلى النضوج الفني, و كان الغناء عبارة عن ترنيمات ساذج يؤديه المغني، حسب درجة الانفعالات و التأثيرات التي يتأثر بها في بيئته الصحراوية. و كان الطابع العام للموسيقى عبارة عن أنغام بسيطة تصاحبها آلات إيقاعية بسيطة [1]. فكانوا يتغنون بالرجز* يرسلونه ارتجالا لبساطته و يسر تفاعيله [2].

للنغم الحلو قوة ساحرة تأخذ بالألباب، سواء كان ذلك في بداوة أو حضارة، وسواء كان المغني من الإناث أو الذكور، و لكل جيل ألحانه، و لكل قطر أنغامه وطرائق إيقاعاته على آلات النقر والعزف من ضرب على الأوتار أو توقيع على آلات إيقاعية أو نفخ في الآلات الهوائية، بين سكون و ارتفاع وامتداد وانقطاع و همس وجهر و حدة و لين...

و قد وضعت لمجرى الأصابع على ثقوب الآلات و أوتارها قواعد يعرفها العام و الخاص من أهل الفن، سماها العرب لحنا و سموها كذلك صوتا و سموها نغما، وسجلناها على الورق في عهدنا الحديث و سميناها باسمها الغربي " الصولفيج "

و الغناء يكون في الشعر لأن الشعر له أوزان منغمة, و قد يكون في الموشحات و الزجل ففيهما إيقاع موسيقي و وزن و قافية.

و كان نزول القرآن الكريم ثورة ثقافية بكل معاني الكلمة، لأن القرآن أساس العلوم، فتعليمه أساس التعليم الإسلامي، و أول دروس القران قراءته. فأول المعلمين في الإسلام النبي محمد، صلى الله عليه و سلم، وأول آية نزلت منه أمرت بالقراءة، ثم تتابعت الآيات القرآنية الحاثة على العلم وتعميمه بعد أن كان في العصور السابقة حكرا على طبقة معينة.

فلما اتسعت الفتوحات و احتك المسلمون بعلماء السريان و الفرس و اليونان بدأت عملية نقل العلوم العقلية و الفنية و غربلتها و الإضافة لها، و بعدما استولوا على الكثير من الأقطار وتدفقت عليهم الثروة، مالوا إلى نضارة العيش و رقة الحاشية و استملاء الفراغ. و زاد اتصال العرب بالمدنيات الأخرى وكان العهد الأموي النافذة الأولى التي أطل منها العالم الإسلامي، بما بلغته من عظمة و قوة وشهرة، و بما بنته من مجد حضاري كان الأرضية الصلبة الواسعة لصرح الحضارة المعاصرة، فازدهرت العلوم الدينية من تفسير و حديث و فقه و نشأت العلوم اللغوية وظهرت مبادئ العلوم العقلية كالطب والكيمياء و الرياضيات، كما ازدهرت الفنون الجميلة من غناء وموسيقى. حيث أنه في ميدان الموسيقى،نجد أ العرب فاقوا سواهم، فوضعوا الألحان و اخترعوا الآلات الموسيقية و أتقنوا صنعها، و كان للموسيقى عندهم شأن كبير و أصبحت فرعا من العلوم المدروسة عند العرب، فوضعوا نظريات للصوت و الأبعاد و الأجناس و الأنواع والجموع و الانتقالات و التآلفات الصوتية و ما إلى ذلك من مصطلحاتهم محتذين في ذلك حذو اليونان و أضافوا إلى ذلك علم الإيقاع.

و بعد اختلاط العرب بالروم و الفرس، اقتبسوا عنهم سائر العلوم الدخيلة، كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان و الهند. فتناولها العرب و درسوها و أصبحت الموسيقى علما عندهم بأصول حيث جمعوا بين ألحان اليونان و الهنود و الفرس، فألفوا من ذلك علما خاصا بالتمدن الإسلامي بلغ درجة حسنة من الإتقان.

ودخلت الموسيقى العربية في عصرها الذهبي في العصر العباسي، وخطت خطوات سريعة نحو الكمال حتى بلغت أوج مجدها و ذروة علاها، و قام البحث وزادت المقامات الموسيقية العربية وطريقة الإيقاع حتى تعددت في اللحن الواحد، و كثرت الآلات الموسيقية وتنوعت و شاع استعمالها و سما قدر أهل الموسيقى حتى اتخذ الخليفة منهم نديما و جليسا له [1] و كان للخلفاء عناية كبرى للغناء، يبذلون الأموال في سبيل تنشيطه وكانوا يشترطون في المغني أن يكون حافظا للأشعار و النوادر، يحسن النحو والصرف . فكان المغنون في الدولة العباسية من أمهر أهل الأدب واللغة و فيهم من يحسن الفقه فضلا عن الأدب و اللغة كإبراهيم ابن إسحاق الموصلي. وكثيرا ما كان الخلفاء يجمعون المغنيين للمناظرة بينهم في التلحين و يجيزون المُجيدين ويُغدقون عليهم الرواتب و الجواري.

لقد أدخل الموسيقيون العرب في فن الغناء ألحانا و مقامات موسيقية لم تكن من قبل، و فيها ما لم يسبق له مثيل في تأثيره. ذكروا منها ألحانا رائعة لا يقدر المغني العادي على غنائها. والآلات الموسيقية

1

أُخذ أكثرها من الفرس والروم و الهند. فقد كان لكل من هذه الأمم آلات خاصة يتغنون بها، فأخذوا عن الفرس العيدان و الصنوج، و عن أهل خرسان الزنج ذات السبعة أوتار، وعن الروم آلة الأوعر و عليها ستة عشر وترا، و آلة تشبه الرباب اللوزا، والقيتارة وآلة الأرغن الذي يعزى اختراعها إلى أحد العلماء الرومان الذي عاش قبل الميلاد بقرن و نصف، وعن الهنود أخذوا الكيلكة بوتر واحد، وآلة الماجودي التي تشبه الطنبور* العربي و آلة السيراندا [1].

فالعرب جمعوا بين هذه الآلات الموسيقية الكثيرة كما جمعوا بين علوم الأمم، و استخرجوا أحسنها و زادوا فيها و حسنوها، فضلا عما استنبطوه من عند أنفسهم، كالآلة المعروفة بالقانون * التي اكتشفها الفارابي – الفيلسوف الإسلامي المشهور – و هو أول من ركبها هذا التركيب و لا تزال عليه إلى الآن، و اصطنع أيضا آلة مؤلفة من عيدان، يركبها و يضرب عليها، وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها. كما زاد العرب وترا خامسا في آلة العود، زاده زرياب بالأندلس بعدما كان له أربعة أوتار على الصنعة القديمة، وأخترع أيضا ريشة مجهزة من قوادم النسر، و كان من قبله يضربون على الآلة بقطعة من الخشب.

و خلاصة القول أن العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة بل هم فاقوا سواهم في أكثرها.

أ – الموسيقى العربية قبل الإسلام

العرب هم فرع من السامية الذين نشأوا مع الحاميين في موطن واحد يمتد من شمال إفريقيا إلى ناحية الصومال حسب المؤرخين، و منه هاجروا إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق شبه جزيرة سيناء وعن طريق مضيق باب المندب. العرب بصفة عامة أقاموا عدة حضارات منها ما ذكر في القرآن الكريم سواء في الشمال أو الجنوب، فعرب الجنوب متحضرون و يطلق عليهم القحطانيون، وعرب الشمال بدو و يطلق عليهم العدنانيون. و مما لا شك فيه أن هذه الحضارات العربية البائدة قد نعمت بحياة غنائية متجاوبة مع الرقي العقلي والروحي لحياة العرب في ذالك الزمن. و كانت الحياة العربية قبل الإسلام تعتمد على نضام القبيلة الذي كان يمتاز بالتماسك بين أفراد القبيلة الواحدة وبالمروءة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. و قد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية لبعدهم عن المدن و انقطاعهم للغزو و الحرب، و لكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول، أهل ذكاء و نباهة و اختبار و حنكة، و أكثر معارفهم من ثمار قرائحهم و هي تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم في الطبيعة و أحوال الإنسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة [1]. و في هذه الظروف وفي هذا الوسط و في هذه المساحة المترامية الأطراف كانت الموسيقى العربية تعيش مع الإنسان العربي، و يمكن أن نقول أن بدايتها و بداية فن الغناء كان يتسم بالبساطة قياسا بحياة الإنسان العربي البدائي في ذلك الزمن ثم تطور الغناء العربي و أثر و تأثر بالحضارات المجاورة. كان العرب في بداوتهم الجاهلية شعراء بطبيعتهم، موسيقيين بفطرتهم، وكانوا يترنمون بالشعر وهو أول أنوع الغناء الجاهلي. فكان الغالب على طبيعتهم التغني بالرجز و هو بحر أشبه بتوقيعه مشي الجمال، فكانوا يتغنون بالرجز يرسلونه ارتجالا لبساطته و يسر تفاعيله:مستفعلن مستفعلن مستفعلن [2]. والوزن أعظم أركان حد الشعر الجاهلي و أولها خصوصية، وهو مشتمل على القافية[3]. والرجز أول وزن استعمله العرب لسوق الجمال و هو الحذاء في اصطلاحهم، و كأنه وضع لهذا الغرض لأن العربي يقضي وقته في معاشرة جمله أو ناقته والغالب في الاعتقاد أن الوزن مأخوذ في الأصل من توقيع الجمال في الصحراء [4].

وأكثر شعر العرب غنائيا أو موسيقيا، يعبرون به عن إحساسهم و يصورون به شعورهم، حيث يرجع بعض المؤرخين أصل الغناء العربي إلى الحدّاء، بمعنى غناء الحادي، وهو دليل القافلة الذي كان ينشد للإبل أشعارا موزونة، حيث نبغ الشعر من منابع غنائية موسيقية موزونة، وقد بقيت فيه مظاهر الغناء والموسيقى واضحة الصلة بضربات المغنيين وإيقاعات الراقصين. فقد كان الشاعر يغني شعره، وقد يوقع هذا الغناء على بعض الآلات الموسيقية، كما قد يصحب غناءه بجوقة ترقص و تعزف في أثنائه [1].

اختلفت ضروب الغناء عند عرب الجاهلية فمنه الحداء للإبل في مسيرها، والهزج وقت الغارة والنصب و السّناد، فأما النصب فغناء الركبان و الفتيان وهو الذي يستعمل في المراثي، وأما السّناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات و النبرات، وأما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه و يُمشّى بالدف والمزمار فيطرب و يستخف الحليم [2]، والإنشاد في الصلاة والأفراح والمآتم، أما طريقة إنشادهم الشعر فلا يزال أثرها في تجويد القرآن. [3]

كان العرب في الجاهلية يطرقون البوادي فينقرون فيها على ما شاءوا من الأوتار يسامرون النجوم وهم جميعا بين هائم ومدافع ومنافر ومفاخر، وكل تلك الأحوال تهيج السليقة الشعرية [4].
فليس في العرب اختلاف إذا أرادوا الترنم ومد الصوت في الغناء و الحداء في إتباع القافية المطلقة للفصل بين الشعر والكلام المنثور. [5]

ومن أنواع الغناء المعروف في العصر الجاهلي:أيضا التهليل و هو غناء ديني كان يقام حول الآلهة في المعابد، وكذا الترديد: وهو ما يَردده الحاضرون في مجالس الفرح واللهو والمجون، وكذا التراتيل، ذلك النوع الديني، وكان ذلك بمرافقة المعازف و العيدان والطنابير والدفوف.
ومن مشاهير هذا العصر: الأعشى ميمون بن قيس من اليمامة و لَقّب بصناجة العرب، وعَدي بن أبي ربيعة المتوفى سنة 490 م وهو من بني تغلب والملقب بالمهلهل، وهو أول شاعر بلغت قصائده ثلاثين بيتا. [6] والنضر بن الحارث المتوفى عام 624 م من آل قصي وهو ممن جابهوا دعوة الرسول ولعنه

1-د شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الله في القرآن الكريم في الآية « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضله عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزؤاً، أولئك لهم عذاب مهين.[1]"

ومن القيان اللائي شاع ذكرهن في العصر الجاهلي: بنت عفـــزر والخنساء وهزيلة وهريرة وخليدة.[2]

وبانتهاء العصر الجاهلي دخلت الموسيقى العربية في قمة تطورها وازدهارها في عصر الحضارات الإسلامية المتعاقبة.[3]

ب- الموسيقى العربية في صدر الإسلام.

نشأ الرسول صلى الله عليه وسلم في قبيلة قريش من أبوين فقيرين، وقد مات والده قبل أن يولد هو، وكانت ولادته في حدود عام 571 م ، و ماتت أمه وهو ليزال صبيا، فكفله جده عبد المطلب وما لبث هذا الأخير أن مات و الرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال في التاسعة، فكفله عمه أبو طالب ورعاه ودربه على شؤون الحياة.

عندما انتهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، من تنظيم شؤون المسلمين في المدينة، انصرف إلى نشر الدين الإسلامي، فلم يتسع له الوقت لدراسة العلوم و الفنون، فلما بلغ الأربعين جاءه الوحي بقوله تعالى": اقرأ باسم ربك الذي خلق.[4]

فكانت هذه الآية الكريمة بداية لعصر انتشار العلم بين طبقات الناس، ثم أُمر بالدعوة إلى الله، و لما حج الرسول، صلى الله عليه وسلم، خطب في عرفات خطبته الجامعة، و أكمل الله دينه. و لم تمضي على ذلك ثلاثة أشهر حتى التحق بالرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة و أرسى قواعد دولة إسلامية موحدة. فقد وحد الإسلام العرب لأول مرة في تاريخهم، و كوّن منهم ساسة الدولة و معلمي الأمم.

كان نزل القرآن نقطة تحول في تاريخ البشر بدعوته إلى الأخوة الإنسانية و محاربة احتكار العلم والشرف و السلطة: " إن أكرمكم عند الله أتقاكم "[5]. و ذهبت عصبية القبائل و صارت المفاخرة بين المهاجرين و الأنصار، و عندهم أيضا المراجزة وهي المقارعة بالرجز و منها المناشدة بالأشعار.[6]

.....

1-

بدأ الفن الإسلامي مع بداية الدعوة، فقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى ناحيتي الجمال والزينة في المخلوقات إلى جانب مالها من نفع فقال: " والأنعام خلقها لكم فيها دفء و منافع و منها تأكلون...و الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون. "[1]

لقد لوحظت قوانين الموسيقى في القرآن تامة كاملة، والشعائر الدينية الأخرى كالمديح النبوي والأذكار المنغمة و آذان الصلاة و صلاة الأعياد، وأذكار مناسك الحج في ألحان موسيقية ترقق حاشية الروح، حيث يقول العالم الإسلامي الشيخ أبو حامد الغزالي:" إن الصوت الجميل يثمر في القلب ثمرة تسمى الوجد.[2] "و القرآن أقر الذوق الراقي و الصوت الجميل، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ".[3]

وتتلخص بقية جوانب عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم و سياسته الحكيمة في إدارة الصراع ورأب الصدع الداخلي من خلال فتح مكة، حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان صاحب الذوق الرفيع، ونبي البر و الوفاء ونبي الحكمة في كل تصرفاته [4].

ويمكن اعتبار الآذان شبه مرتجل لترتيلات لها نغمات مميزة، وقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم للأذان بلال بن رباح صاحب الصوت الجميل وكان يمتدح صوت أبي موسى الأشعري حين يسمعه يقرا القرآن ويقول صلى الله عليه وسلم:" لقد أُتيت مزمارا من مزامير آل داوود. "[5]، هذا الكلام قاله النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى عند ما كان يقرا القرآن و النبي يستمع إليه وهو لا يعلم، وكان له صوت حسن. كذلك يروي مؤرخو الأدب أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستمع لإنشاد الخنساء فيطرب لشعرها، ويستزيدها و لما اسلم كعب بن زهير مدح النبي بقصيدته المشهورة:

إن الرسول لسيف يستضاء به *** مهند من سيوف الله مسلول [6]

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يحب إن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من ذكر الله و البعث ، و كان النبي (ص) مع ذلك يقرب الشعراء المسلمين ويشجعهم على قول الشعر لتأثيرهم في الأذهان وكان يرى لأشعارهم تأثيرا في أعدائه.

ومن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم: "هؤلاء النفر(الشعراء) اشد علىقريش من نضح النبل "وقال لحسان بن ثابت مرة : "أهْجُهم (يعني قريشا) ، فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام " [1].

وأشار القرآن الكريم إلى الوسيلة التي توصل الإنسان المؤمن إلى تهذيب الوجدان وتهذيب الذوق حتى يصل إلى حب الجمال، فاقسم ببعض المظاهر الطبيعية لندرك ما فيها من أسرار الجمال الفني، من تكوين محكم وتنسيق بديع وألوان رائعة ونتناسب وتقابل وتكرار وضلال وأضواء.[2]

دون أن يحرم القرآن على إتباعه متع الحياة المشروعة:" يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد."[3]

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة استقبله المسلمون هناك بزغاريد والأهازيج والأغاني، ومنها

طلع البدر علينا *** من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا *** ما دعا لله داع

قد لبست الموسيقى العربية في الإسلام ثوبا دينيا ناصعا يوم نزل القرآن الكريم، وسارت تلاوته بالصوت الجميل في النفوس سريان الطهر و العافية في الجسم السقيم [4]، حيث كانت مهمة الغناء في الإسلام خدمة الدين و الرسالة و التعبير عنها و السمو بالعاطفة و انتزاع النفس انتزاعا من محيطها الدنيوي المليء بالمطامع للانطلاق بها في فضاء لانهائية و التخلص من شوائب المادة [5].

و من إعجاز القرآن الكريم نظمه على إيقاع موسيقي رائع بسيط على المستمعين، و في ألفاظه موسيقى كموسيقى الشعر و قوافيه كقوافي الشعر أو السجع، لأن في القرآن من البلاغة ما لم يجتمع له نظير في نثر و لا في شعر [6]، بل تلك ناحية من نواحي الجمال فيه، لأن للقافية * أثر كبير في موسيقى الشعر العربي، و لا غرابة في ذلك مادامت القافية هي الركن الثاني بعد الوزن الذي يعتمد عليه في التفريق بين النثر الفني و الشعر.

.....

القافية تريح النفس وتطرب السمع، وتكسب موسيقى الشعر المزيد من العذوبة والجمال وحسن الانسجام، كما تساعد على حفظ الأشعار وتذكرها، وهذه مزايا جديرة بأن تجعل شعراء وأقطاب الغناء العربي حراصا على القافية بقدر الإمكان، ومهما قيل في قافية القرآن فأنها تظل شاهدا من شواهد كثيرة على إعجاز القرآن وغزارة مفرداته وتنوع أنغامه وظهور ألفاظه موسيقية كموسيقى الشعر، وهذه المزايا ينفرد بها القرآن. وقد اتفق القدماء في أن ما وقع في القرآن الكريم من آيات موزونة أو مقفاة لم يكن عن عمد أو قصد، وإنما هو الكلام العربي الموسيقي في أكثر نواحيه [1].

أما في قراءة القرآن فان الترتيل القرآني لدى المسلمين يأخد شكلا غنائيا لقوله تعالى: " ورتل القرآن ترتيلا."[2]

ولم يأتي في القرآن الكريم ولا في الأحاديث النبوية الصحيحة ما يحرم الغناء، بل الإسلام أقر الذوق السليم والصوت السليم، والموسيقى من أهم الوسائل التي لا يمكن الاستغناء عنها في النظام التربوي، حيث أنها كانت ومازالت موضع اهتمام المربين والعاملين على رفع المستوى الثقافي والفكري والفني والروحي، وتربية الفرد تربية متكاملة ومتزنة بغرس القيم الأخلاقية النبيلة، ولذلك نجد الفكر الحديث ينظر إلى الفرد نظرة متكاملة لا يفصل فيه بين جسم وروح وعقل، أو بين وجدان داخلي وتفاعل اجتماعي [3].

ولم نسمع تحريما أو نهيا صريحا عن الموسيقى، مع معارضة الأئمة الأربعة لهذا الفن العظيم، وقد قال تعالى:" وقل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق [4]"

وهناك مواقف كثيرة تؤيد سماع الرسول الكريم للموسيقى والموسيقيين ،ومن أشهر المغنيين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بلال الحبشي و الأعشى صناجة العرب [5] وعمر بن أمية و النضر بن الحارث، ويقال أنه هو الذي أدخل العود إلى مكة من الحيرة وكان ينظم الشعر محاولا أن يستميل الناس و يصرفهم عن الإستماع إلى القرآن [6].

جـــ – الموسيقى العربية في العصر الأموي:

فلما اتسعت الفتوحات وإحتك المسلمون بعلماء السريان و الفرس و الروم بدأت عملية نقل العلوم العقلية و الفنية و غربلتها و الإضافة لها، و قد كان العهد الأموي النافذة الأولى التي أطل منها العالم الإسلامي على تراث هذه الشعوب.

لقد رفع بنوا أمية بناء الحضارة الإسلامية، حيث تأسست الدولة الأموية الكبرى على يد معاوية ابن أبي سفيان، و من عظماء الخلفاء الأمويين معاوية مؤسس الدولة، و عبد الملك ابن مروان، و الوليد ابن عبد الملك، و هشام و عمر ابن عبد العزيز.

امتازت الخلافة الأموية عن الخلافة الراشدة بأمور عديدة، جعلتها أقرب إلى الملكية منها إلى الخلافة، و قد كان معاوية يرمي بالفعل إلى جعل الخلافة ملكا و هو القائل: " أنا أول الملوك " وفي سبيل ذلك ابتدع في الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد.

بعد الإسلام استولى العرب على الكثير من الأقطاروتدفقت عليهم الثروة ،ومالوا إلى نضارة العيش و استملاء وقت الفراغ و اختلطوا مع الموالي من الفرس و الروم، و تحول الشعر في عهدهم عن وصف الأطلال و البكاء على الحبيب إلى السياسة و أضحى الثلاثي الأموي: الأخطل و جرير والفرزدق من أبرز الشعراء السياسيين و قد امتازوا بالمديح، كما برعوا في الهجاء و ظهر في هذا العصر الشعر الغنائي الغزلي و من رواده عمر ابن أبي ربيعة الإباحي، و جميل بتينة العذري.

و أصبح للموسيقى في الدولة الأموية حظ من العلوم و الفنون الأخرى فازدهرت و تطورت، غير أن مما يجب الإقرار به أن فلاسفة العرب و مغنيهم و إن أخذوا العلوم الموسيقية و فنونها عن مصر واليونان و الفرس، فقد احتفظوا فيها إلى حد كبير بشخصيتها العربية التي ميزت موسيقاهم وجعلت لهم طابعا خاصا.

و نتيجة لهذا التطور و التقدم للحضارة العربية في هذا العصر، شهدت الموسيقى تطورا ملحوظا نستدل عليه بما يلي:

تعددت المقامات الموسيقية و الإيقاعات و تنوعت، كما تعددت الآلات الموسيقية و تنوعت وتطورت

.....

1-عبد الحليم [illegible]

ظهرت كتب في التأليف الغنائي و الموسيقي، كما اقتبست بعض المصطلحات الموسيقية من المدنيات الأخرى و أدخلت في الموسيقى العربية .

أصبحت الأموال تنفق بدون حساب على مشاهير المغنين و الموسيقيين ، حيث أغرق معاوية الشعراء بالعطايا و الرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك، كما كان الخلفاء ينفقون الأموال الكثيرة على المغنين [1]، و أصبحت مكة وبنوع خاص المدينة موئلا للموسيقى و الموسيقيين [2].

لقد إستمد الموسيقيون العرب من كتب الإغريق أرائهم العلمية في الموسيقى ، و أصبحت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادئ نظرية الصوت الفيزيائية و الفيسيولوجية، و من هنا كانت الناحية العلمية الرياضية للموسيقى العربية مستمدة من أصول يونانية، أما الناحية العلمية فنماذجها كما أظهرت أبحاث فارمر عربية بحته، و ظهرت أنغام تقطيع الأصوات الموسيقية " النوتات"[3].

و أصبح للموسيقى في الدولة الأموية حظ من العلوم و الفنون الأخرى، و ظهر من المغنين والمغنيات من يجدر بنا أن نطلق عليهم و على فنهم "المدرسة الحديثة "[4]، و منهم سائب خاثر، نشيط الفارسي، عزت الميلاد، جميلة، سلامة، حنين الجبري، ابن سريج معبد [5]

كما ظهرت في العصر الأموي أول تصانيف عربية في أخبار الموسيقى و الغناء، فقد وضع يونس الكاتب: كتاب النغم و كتاب القيان [6].

د : الموسيقى العربية في العصر العباسي:

قامت الخلافة العباسية بسواعد الفرس على النظرية الشيعية القائمة على مبدأ حصر الخلافة في آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فاكتسب الفرس بهذا التأييد نفوذا كبيرا في عصر الخلافة الأول و خاصة في عهد المأمون، كما استفحل نفوذ العصر التركي في حياة المعتصم:

ازدهرت الحضارة العربية ازدهارا عظيما في هذا العصر، وشملت جميع مجالات الحياة، فاعتبرها المصنفون قاعدة الحضارة المعاصرة، وكان الرشيد و المأمون من أعظم رعاة العلوم و الفنون في التاريخ الاسلامي، حيث أصبح بلاط الرشيد بأبهته و أناقته موئل الغناء و مقصد أرباب الغناء و الموسيقى [1].

إن الحركة الثقافية المعاصرة تدين بأصولها وقواعدها للعصر العباسي، وقد تألق نجم كثير من العلماء المسلمين و غير المسلمين في الدولة العباسية، حيث عالجوا كل فروع المعرفة الإنسانية معالجة أكسبتهم شهرة عالمية خالدة، و كان بيت الحكمة تحت رعاية الرشيد و إبنه المأمون مجمعا علميا يضم مكتبة عظيمة ولجنة للترجمة و مرصدا لتعليم الفلك. وكانت أول جامعة عربية اشتغل فيها العلماء بترجمة علوم اليونان التي كان من بينها علم الموسيقى [2].

ظهرت في العصر العباسي عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى العربية و نظرياتها، فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من أهتم بهذا الموضوع بعد يونس الكاتب، فوضع كتبا أهمها: كتب النغم وكتاب الإيقاع و معجم العين، كما يعد أول من فكر في وضع علم العروض، فقد وضع أصوله واخترع أوزانه وجميع أعاريضه وضروبه، كما ألف كتابا سماه العروض.[3] والعروض علم به وزن الشعر و استقامته من انكساره [4].

عند قيام الدولة العباسية، اضطر الخلفاء إلى أن يسترضوا الشعراء و المغنيين ويجزلوا لهم العطاء، ولهذا تزاحم الشعراء و المغنون على باب المهدي و الرشيد و المأمون، ونبغ منهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية، وبعد تزايد النفوذ الفارسي ثم التركي في البلاط العباسي ضعف أمر الشعراء.

و أدرك الموالي من الفرس و الروم ما عند العرب من ميول فنية جديدة ،فقصدوا البلاط العباسي يطربون أغنياءه و أمراءه بالغناء و العزف، حيث راح الخلفاء و الأمراء يتنافسون على جدب الفنانين إلى بلاطهم و أصبحت الأموال تنفق بدون حساب على مشاهير المغنيين و الموسيقيين ، و قد بلغت صناعة الغناء كما لها على يد إبراهيم ابن المهدي و إبراهيم الموصلي و ولديه إسحاق و حماد وحكم الوادي و زلزل الكندي [5]. و خاصة في عهد الرشيد الذي كان أول خليفة يجاهر بوضع الموسيقى تحت رعايته و يجعل منها مهنة شريفة لا يتورع على ممارستها الأمراء والأميرات.

كما تبغ الخليفة الواثق بعلم الموسيقى، و من أشهر المغنيين في العصر العباسي سياط المكي وإبراهيم الموصلي و ابن جامع و مخارق وزلزل[1]، و من المغنيات : متيم وعريب و دنانير ، وجميلة وعقيلة[2].

و من أهم معالم تطور الموسيقى العباسية ظهور صناعة الغناء في أوزان الشعر العباسي الذي تمثل صنعه في القوافي و الموسيقى الخارجية و العروض [3]. كما زادت المقامات الموسيقية العربية وتنوعت وكثرت، و جلب الغناء الرقيق من فارس و الروم فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية و غنوا جميعا بالعيدان و الطنابير و المعازف والمزامير [4]. إن تطور و تنوع الآلات الموسيقية زاد في ظهور الفرق الموسيقية على اختلاف أنواعها، ومن أشهرها فرقة الموصلي التي بلغ عدد أفرادها زهاء المائة عازف. و هو أول من وقع الإيقاع بالقضيب, كما أحيا الأمين ليلة لهو رقص فيها أهل البلاط ذكورا و إناث حتى مطلع الفجر. و كان الموسيقيون يحفظون الكثير من الأشعار، فهم إذن مغنون و شعراء وعلماء تثقفوا بالثقافة العلمية، و يأتي بعد هؤلاء مرتبة الضاربون، و أهمهم أصحاب الأعواد. أما الضاربون على الرباب فقد كانوا أدنى مرتبة [5]. كما ساهم العرب في تطوير علم التدوين الموسيقي لألحانهم بمصطلحات ابتكروها لهذا الغرض. فها هو الكندي في كتابه" رسالة في خبر تأليف الألحان" الذي دون فيه الألحان بالحروف الهجائية التي اصطلحوا عليها في ذلك العصر [6].

ومن المؤلفات الجديدة التي ظهرت في ذلك العصر نذكر النوبة و الموشحات والأزجال، وفيه انتقلت الموشحات إلى بلاد الأندلس على يد زرياب[7].

اشتغل العرب بنقل العلوم الدخيلة إلى لغتهم، واهتموا كذلك بنقل الكثير من كتب الموسيقى عن اليونانية والهندية والفارسية، وأخضعوها للدرس و التحليل و التهذيب، ثم زادوا عليها فصارت على أيديهم فنا متميزا خاصا بهم وضعوا فيه الكثير من المؤلفات ، و استنبطوا له العديد من الآلات والألحان [8].

.....

وكان زعيم الكتاب الموسيقيين الذي تبعوا المدرسة الإغريقية الكندي الذي عاش في هذا العصر، ويظهر في كتبه أول معالم الأثر اليوناني[1].حيث ظهرت بعض التسميات المستعارة والمعربة مثل " قيتارة :قيتار"، " قانون : كانون "."انترفال: بعد" وربع النغمة، وظهر الدور في موسيقى النوبة. وقد أرسلت البعثات العلمية إلى بلاد فارس والروم واليونان، فجاءوا بكثير من المؤلفات العلمية والفنية والموسيقية. وظهرت مؤلفات الموصلي الفنية [2] و الذي ألف أكثر من أربعين كتابا في الموسيقى، منها كتاب الأغاني الكبير ، وكتاب النغم و الإيقاع.كما قام بتجزئة الشعر وتقسيم مخارج نغمه ومواضع مقاطعه ومقادير أدواره وأوزانه[3].كما ظهرت مؤلفات للكندي وكتب للفارابي، وإخوان الصفا، وابن سينا واللادقي وغيرهم من المعروفين لدي الباحثين [4]. وظهرت مؤلفات أبو يوسف ابن إسحاق الكندي الذي كتب 225 رسالة في مختلف العلوم و قد تأثر الكندي بمذهب الأفلاطونية المحدثة [5]. وانضم إلى مذهب المعتزلة، و لُقّب بفيلسوف العرب، وله العديد من الكتب الموسيقية منها رسالة الخبر في التأليف، و رسالة في الإيقاع. وقد عالج الكندي علم التأليف وطبيعة الأصوات و تركيب النغمات مع تطبيق ذلك على آلة العود [6]. ونجد في واحد من الكتب التسعة المنسوبة إليه أول استعمال صريح لعلامات الموسيقي عند العرب[7]. و لم يكن الكندي وحيدا في علم الموسيقي النظرية ، بل أن عددا من رجال الفلسفة الإسلامية و الطب كانوا كذلك أيضا. و قد وضع الرازي كتابا في هذا الفن أشار إليه ابن أبي أصبيعة. [8] وأما الخليل ابن أحمد الفراهيدي الذي كان إماما في علم النحو، فقد أسهم في بناء أسس الحضارة الإسلامية و الإنسانية عامة، حيث وضع أول معجم في اللغة العربية مرتب حسب مخارج الحروف، كما يعد أول من ألف كتبا في الموسيقي العربية تحدث فيها عن النغمات و ربط بينها و بين أوزان الشعر [9].

و لما انتقلت الخلافة إلى المتوكل اعتمد على الأتراك، و قامت جماعة من العلماء السنيين، عرفوا بالمتكلمين، بتحكيم المنطق و العقل في إثبات العقائد الأصلية، و كان أبرزهم أبو الحسن الأشعري الذي أمن بالجبرية لتشع في عواصم الإسلام الأخرى. [1] فقد تعهد سيف الدين الحمداني رعاية الفارابي الذي وضع أسس صناعة القانون، و كان أعظم من كَتَبَ في أصول الموسيقي بين كتاب العصور الوسطي، فقد وضع ثلاثة أبحاث مبتكرة منها: " كتاب الموسيقي الكبير " و كتاب " إحصاء العلوم " [2] فجاءت أفكاره و نظرياته شاملة و وافية مستوفية لجميع نواحي الموسيقي ، من حيث طبيعة الأصوات وتوافقها و أنواع الأنغام و الأوزان و الآلات الموسيقية المختلفة [3].

إلى جانب مؤلفات الرازي الموسيقية، ظهرت أيضا أعمال الطبيب ابن سينا الذي تخطى في نزعته العقلية الغزالي وابن الرشد والمعري، و قد فصّل ابن سينا فلسفته العقلية المنطقية في كتابي: الشفاء * والنجاة [4] و هو آخر فلاسفة المشرق العربي و واضع كتاب القانون الجامع لشؤون الطب والصيدلة ومكتشف الطفيليات حيث وُجد في كتاب ابن سنا فصل كامل يناقش تأثير الموسيقى كعلاج للحالات المرضية[5].

ابن سينا كان نادرة عصره في علمه و ذكائه و تصانيفه، و صنف كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة و الإشارات و القانون و غير ذلك ما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر ورسالة في فنون شتى [6] و نقتصر هنا على الإشارة إلى ناحية امتاز بها ابن سنا في مؤلفاته الموسيقية : هي الهارموني أو علم تآلفات الأصوات الموسيقية و هو تعدد الأصوات في آن واحد .

فقد اتخذ في كتابه عن الهارموني عنوانا أسماه " محاسن اللحن " و قسم هذا العلم إلى أربعة أنواع مختلفة: الترعيد والتوصيل والتركيب والتخريج [1] ووصل ابن سنا إلى فكرة أن الموسيقى علم رياضي يُبحث فيه عن أحوال النغم من حيث الانسجام والتنافر في الأصوات , و تعرف هذه النظرية في علمالموسيقى الحديثة بنظرية " علم الهارموني " .

طالما تشوق الباحثون في تاريخ الموسيقى العباسية لمعرفة هذا التاريخ، وما كانت عليه الموسيقي العباسية من كيان و قوة و رقي، و ما كان لألحانها من طراز راق، و ما لنظرياتها من مبادئ، و ما كان من ثقافة العاملين من حقلها. و وقف المؤرخون الذين تم لهم اكتشاف لغز رقي الموسيقي العباسية، ووقفوا على خطوطها و على رموزها، و عرفوا تاريخه.

الموسيقي هي علم إلى جانب كونها فنا له تأثيره في الكون من حيث الصحة و المرض و التحكيم بين العقل و المنطق، و من حيث الارتباط بالنسب بينها وبين الموزونات الكونية. و من حيث الاستفادة منها كالعلوم النظرية الأخرى.

إن الباحثين في تاريخ الموسيقى العباسية لم يذكروا إلا نتفا من مواضيع الموسيقي الكثيرة المختلفة والمتشعبة، و لم يستقوا حقائق هذه النتف إلا من بعض الرواة و من الكتب التي أصبحت معروفة لدي الجميع، وهي كتب التاريخ التي تخلوا صفحاتها إلا من جزئيات ضئيلة وبحوث بسيطة جدا. و إذا رجعنا ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، و هو أفضل كتاب يصح الرجوع إليه في حالات كثيرة لغزارة مادته و كبر نفعه في العصر العباسي، نرى بأنه احتوى على شذرات ضئيلة و بحوث بسيطة جدا في تاريخ و علم الموسيقي تشبه الرموز والطلاسم.

نعتبر أن العصر العباسي هو العصر الزاهر بالنسبة للموسيقي العربية و الإسلامية، و العصر الذهبي للغناء و التأليف و التدوين و اختراع الآلات و تطويرها، و ظهور مقامات موسيقية عربية جديدة و ضروب إيقاعية متعددة في اللحن الواحد، و ظهور الفرق الموسيقية على اختلاف أنواعها، وظهور مؤلفات موسيقية جديدة: النوبة و الموشحات و الأزجال.

هـ - الموسيقى العربية في الأندلس.

بعد أن وَلي الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قائده موسى بن نصير على المغرب، استطاع أن يفتح طنجة وترك بها حامية يقودها مولاه طارق بن زياد، ومنذ ذلك الحين بدأ طارق يتطلع إلى فتح الأندلس. وكان حاكمها "الكونت" يوليان الذي كان نائبا للإمبراطور البيزنطي لوذريق حاكم طليطلة.

انتدب موسّى بن نصير طارق بن زياد لفتح الأندلس، ورست سفنه عند جبل لا يزال يعرف حتى الآن بجبل طارق، وكان نزوله في رجب سنة 92 هـ. وبعد ذلك توسع طارق بن زياد في الفتح، ففتح عدة مدن وانتهى إلى عاصمة الأندلس طليطلة. بعد ذلك، دخل موسى بن نصير الأندلس في رمضان سنة 93 هـ ففتح المدن التي لم يفتحها طارق كأشبيلية وماردة. وهكذا تحققت انتصارات المسلمين وكان لها أعظم الأثر في بقاء سلطان المسلمين في الأندلس لمدة ثمانية قرون من الزمان، أقاموا فيها حضارة لم تعرفها البشرية كلها.[1] احتفظ بنوا أمية بحكم في الأندلس بعد سقوط خلافتهم بدمشق على يد بني العباس وذلك بفضل جرأة و دهاء عبد الرحمان الداخل (صقر قريش).

ويتفق المؤرخون المنصفون بأن حضارة الأندلس العربية هي الدعامة القوية التي شيدت عليها الحضارة المعاصرة، حيث ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس تحت رعاية بني أمية ازدهارا عظيما في العلوم والفنون والاقتصاد، حتى أصبحت البلاد كعبة يحج إليها طلاب المعرفة من كل الأقطار.

كان للشعر تاريخ خاص في الأندلس، حيث تيسرت له العناية, بعد أن انشغل عنه الجميع في المشرق. امتاز الشعر الأندلسي بأنه جاء متحررا من قيود التقليد مهذبا في مناحيه و فنونه. نشأت فيه أوزان جيدة أبرزها الموشح والزجل، أما أبرز شعراء الأندلس فكانوا ابن عبد ربه، ابن حزم، ابن الخطيب، ابن زيدون، ابن خفاجة، أبو العباس التطيلي الوشاح. لم يقتصر البلاطهم.الموسيقى والغناء على بلاد المشرق، بل تعداها إلى المغرب و الأندلس، حيث راح الخلفاء و الحكام و الأمراء هناك ينافسون أهل المشرق علىبلاطهم. حقا أن الأندلس عاشت في ترف أحدث عندها اهتماما بشعر الطبيعة, كما أحدث عندها نهضة واسعة في الغناء و ما يطوي من الموشحات والأزجال [2]

الحق أن شخصية الأندلس في الشعر العربي لم تكن قوية، ومع ذلك فإنها استطاعت أن تحدث شيئا

جديدا في الشعر إلى حد ما يتجاوب مع بيئتها وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم, وهو هذه الموشحات و الأزجال التي تعبر عن موجة واسعة من الغناء والموسيقي، وقد نشأت هذه الموجة مع زرياب [1] غلام الموصليين، وقد أخذ عنهم الغناء فأجاد، فصرفوه عنهم غيرة منه، فهاجر إلى بلاد المغرب فالأندلس حيث استقبله الحكم بن هشام و بالغ في تكريمه [2] ، و إلى زرياب يعود الفضل في زيادة وتر خامس على أوتار آلة العود، كما أنه هو مخترع مضراب العود من قوادم النسر، ومؤسس النهضة الفنية في بلاد الأندلس [3] ، حيث عاشت الأندلس عصرها الذهبي في الغناء على يد زرياب تلميذ إسحاق الموصلي، وقد ترك آثارا بعيدة المدى في الأندلس حيث وضع حجر الأساس لمدرسة الغناء في الأندلس [4] . فلقد كان له الفضل و الأثر الكبير في تحسين الموسيقي العربية، كما كانت طريقته في الغناء سببا قويا في اختراع الموشحات الأندلسية. و لم يكن زرياب وحيدا في علم الموسيقي النظرية بل أن عددا من عظماء الموسيقي الأندلسية كانوا كذلك أيضا، حيث يعزى الفضل إلى عباس بن فرناس في إدخال الموسيقي الشرقية إلى الأندلس و تعميمها ، وابن عبد ربه في العقد الفريد [5] . كما ألف أبو بكر بن باجه كتابا في الموسيقي، و يحي المرسي ألف "الأغاني الأندلسية "[6]، والمعتمد العبادي لم يكن شاعرا ملهما فحسب بل كان يحسن الإنشاد أيضا والضرب على العود واشتهر بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها. كما ألف ابن ماجة رسالة في الموسيقي توازي قيمتها و أهميتها الرسالة التي ألفها الفارابي في الشرق. وقام ابن السبعين المتوفى سنة 1269 م ببحث خاص بتناسب الأنغام الموسيقية في كتاب سماه " الأدوار المنسوب " [7] .

إذا تركنا الحياة الفنية في الأندلس إلى الحياة الأدبية وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق واضحة جلية، إذ تصاغ الكتب الأدبية عند الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة، و تابع الأدباء والشعراء في تقليدهم لأدباء المشرق وشعرائه حتى خيل للدارس أن الأدباء قد حبسوا أنفسهم داخل الإطار العام للأدب العربي، حيث وضعوا أدب المشرق نصب أعينهم يتخذون منه مثلهم الأدبية العليا.

.....

1

رأينا أن الأندلس تؤسس حياتها العقلية و الأدبية على أسس مشرقية جعلها ذلك تعيش في فنها و شعرها داخل الإطار المشرقي العام، و معنى ذلك أن الشاعر الأندلسي لم يحاول أن يُخضع الشعر العربي لشخصيته، بل رأيناه هو يخضع له. حيث كان الأندلسيون يولون وجوههم دائما نحو المشرق العربي يقلدون شعراءه في مذاهبهم و نماذجهم, وعلى هذه الشاكلة صاغ شعراء الأندلس قصائدهم على صورة القصائد العباسية، وهي صورة لا تقف عند المشابهة في الوزن والروي، بل تمتد إلى المشابهة في المعاني الأساليب، فهم يُبدئون ويعيدون في المعاني والصور الموروثة دون أن يضيفوا إليها جديدا.

والحق أن شخصية الأندلسي في الشعر لم تكن قوية، ومع ذلك فقد استطاعت أن تحدث شيئا جديدا في الشعر، إلى حد ما، يتجاوب مع بيئتها ومع ما كان فيها من ترف و نعيم، وهو هذه الموشحات والأزجال.

هذه الموشحات والأزجال التي تعبر عن موجة واسعة من الغناء والموسيقى وقد نشأت هذه الموجة مع زرياب وغيره من مغنيي المشرق.[1]

الموشحات و الأزجال فنان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية. والموشح نشأ بالأندلس أو المشرق في أواخر القرن الثالث الهجري، وسبب انتشاره صلاحيته للغناء و انسجامه مع لغة الكلام للعوام، فهو يتحلل من بعض قواعد اللغة الفصحى و خاصة الإعراب، و إنما سمي كذلك تشبيها له بالوشاح أو القلادة التي تنظم حباتها من اللؤلؤ والمرجان [2].

كما كتب ابن سناء الملك في مقدمة مؤلفه: "دار الطراز في عمل الموشحات"

يقول:" فإن الموشحات هزل كله جد وجد كأنه هزل، و نظم تشهد العين أنه نثر، و نثر يشهد الذوق أنه نظم. و قد وصف الموشح قائلا بأنه: كلام منظوم على وزن مخصوص و هو مكون من أقفال و أبيات أو أسماط و أغصان أو أقفال وخرجات، و الأقفال هي تلك الأجزاء المتفقة في الوزن والقافية و العدد، أما الأبيات فإما أن تكون مفردة أو مركبة ويلزم أن تكون الأبيات متفقة بالوزن وعدد الأجزاء متخالفة في القوافي والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح [3]

لا يختلف الزجل عن الموشح إلا في استخدامه اللغة العامية و بعض الفروق في أقفاله و قوافيه, وهو وليد الموشح و تابعه و مقلده.وثمة شواهد كثيرة تؤيد هذه الفكرة. فالزجالون يقتفون آثار الموشح في البناء و الشكل و الأوزان والقوافي [1].

و الحق أن الموشحات و الأزجال جميعا لم تحدثا ثورة واسعة على الأوضاع القديمة في الصياغة الفنية للشعر العمودي الفصيح، و استمر معظم شعراء الجزيرة الخضراء عند المحاكاة و التقليد و ما صنعوه بقصائدهم من الخلط فيما بينهم صياغات مذاهب الصنعة و التصنيع و التصنع و ظلوا يستمدون في دلالاتهم صياغاتها من معين المشرق و مذاهبه الفنية.[2]

نماذج من الموشحات الأندلسية

يقول ابن سهل صاحب الموشحة المشهورة :

هلْ دَرَى ظَبْيُ الحِمى أن قد حمـــــــى *** قلبَ صب حِلهُ عن مكنس

فهــو فــي نارٍ و خفـــــقٍ مثْلمـــــا *** لعِبتْ ريحُ الصّبا بالقَبــسِ

و قد نسج على منواله لسان الدين بن الخطيب في موشحته المعروفة

جادَكَ الغيْثُ إذا الغيثُ همى *** يا زمانَ الوصلِ بالأندلـــــس

لــم يكـــن وصلـــك إلا حَلمـــاً *** في الكرى أو خِلسةَ المُختلِسِ [3]

و من موشحات ابن عتبة:

يا حبذا يومنا يوم الخليج

و الموج تركض أطراف المروج

أحبب به و بمرآه البهيج

يفتر ثغر الكمام *** عن باكيات الغمام

و الغصون تميل *** سكرا بغير مدام [4]

وقد انتهى التطيلي بالموشحات إلى صورتها الأخيرة في عصور ملوك الطوائف.

.....

1 دفتر ... 139

يقول التطيلي صاحب الموشحة المشهورة:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان و حواه صدري

آه مما أجد شفي ما أجد

قام بي و قعد باضش متئد

كلما قمت قد قال لي أين قد [1]

و من أشهر الموشحات الأندلسية أيضا:

من أطلع البدر في كمال غصن اعتدال

بمهجتي شادن غرير

يجور حكما و لا يجير

و ما سوى أدمعي نصير [2]

نماذج من الزجل:

السياسة تخرب الدنيا العمار ما تلاقيش منها غير بسي الدمار

يعني دي شبهتها بلعب القمار شوف ولاحظ حالة الساسة الكبار

لجل ما تصدق بدون ما احلف يميني [3]

لقد نشأ شعر الموشحات و الأزجال و نبع من منابع غنائية موسيقية، و قد بقيت فيه مظاهر الغناء والموسيقى واضحة الصلة بضربات المغنيين و إيقاعات الراقصين. و الحق أن الموشحات الأزجال جميعا لم تحدثا ثورة واسعة على الأوضاع القديمة في الصياغة الفنية للشعر الفصيح، وربما كان ذلك يرجع في بعض أسبابه إلى أن الأندلس لم تعرف التفكير العميق والدقيق. و معنى ذلك أن الشاعر الأندلسي لم يحاول أن يخضع الشعر العربي لشخصيته، بل يخضع موضوعاته المعروفة في المشرق كما يخضع لأفكاره و معانيه وأخيلته وأساليبه [4].

و إذا كان لابد من إبداء الرأي في هذا الشعر الغنائي، فيمكن القول: إن هذا اللون الغنائي عبارة عن سحابة عابرة، فهو شعر وضع للغناء، آيل للسقوط، قابل للانصهار والذوبان مستقبله غامض لأنه خالف القدامى في الأصول التي وضعوها و المناهج التي أوضحوها و القواعد التي أثبتوها.

1

خالف القدامى في الأصول التي وضعوها و المناهج التي أوضحوها والقواعد التي أثبتوها.لقد تميزت الموسيقى الأندلسية بموشحاتها التي عمت الغرب و الشرق، تلك الموشحات التي وضع أسسها زرياب الذي انتقل من المشرق إلى الأندلس حاملا كنوزه وأثاره الموسيقية التي وجدت مرتعا في الأندلس.

في هذا العصر، دخلت الموسيقى في طور جديد من حيث التأليف و الغناء والآلات الموسيقية المختلفة.كما أسس أول معهد موسيقى لتعليم الغناء على طريقة النوبة، وانتشر الزجل و تمت طريقة الغناء على طريقة النوبة و زادت ضروب الإيقاع و اتحد الإيقاعان الشعري و الغنائي.

ومن المعلوم أن واضع الإيقاع الشعري هو أحمد الفراهيدي الذي وضع قواعد و أسس العروض وقسم بحوره، أما الإيقاع الغنائي فنقصد به الميزان الغنائي، و هو عبارة عن سلسلة أزمنة يوضحها النقر أو الضرب على آلة إيقاعية كالدربوكة أو الطبل مثلا. و قد سميت هذه السلسلة عند علماء الإيقاع والموسيقى " دورا ".

وقد طابق العرب بين الإيقاعين و ذلك باستخدام التلوين المعروف، و هذا ما جاء به زرياب وقام بتعليمه في الأندلس. كما نقل العرب إلى الأندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية وطورها و زادوا عليها، فاستعملوا في موسيقاهم العود الكامل ذا الأوتار الخمسة و الرباب و الكمنجة و القيتارة و المزهر والكنارة و القانون.

وحين اضمحلت الأندلس و سقطت اشبيلية، هاجر سكان الأندلس إلى دول المغرب العربي ونقلوا معهم كنوز الموسيقى الأندلسية وغدت تلك البلدان وارثة هذه الكنوز ومنها الموشحات وموسيقى النوبة.

رابعا: الموسيقى العربية وتأثيرها على الموسيقى الأوربية.

فتح المسلمون الأندلس و لكنهم استهانوا بالمناطق الجبلية في أقصى الشمال فلم يفتحوها كما أنهم تركوا الحرية في الأراضي المفتوحة لمن أراد البقاء على دينه القديم عملا بالآية الكريمة " لا إكراه في الدين "[1] فنبتت في تلك المناطق الوعرة إمارات المسيحيين، و أخذت تلك الإمارات تتوسع على حساب المسلمين حتى لم يبق للمسلمين حين حلول القرن 14 م غير مملكة غرناطة، وتعرض مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة لحرب إبادة وتنصير لا شبيه لها في التاريخ و لم تأت سنة 1614 م حتى لم يبق أثر للإسلام و المسلمين في الأندلس.

و لعل الأوربيين هم أول من عني بتراث المسلمين الفني و كان الباعث لهم على البحث عن أثر الفن الأندلسي الإسلامي في الفن المسيحي الأوروبي. فما كادوا يتتبعون أصول هذا الفن حتى بهرتهم فنون كثيرة أخذوها عن الأندلس والمغرب وصقيلية، ووجدوا إن الفن العربي الإسلامي كان شأنه شأن العلوم والفلسفة التي أخذها الغرب عن العرب والمسلمين، حيث اكتشفوا عالما فنيا غنيا واعترفوا أنه أوسع الفنون العالمية انتشارا و أكثرها تنوعا وغزارة.[2]

انطلاقا من هذا المبدأ، عزز الأوروبيون محاولاتهم و أخضعوا كل ما وصل إليهم من بلاد المسلمين لامتحان العقل و الاختبار. وذهبوا في منحاهم هذا إلى دراسة فقه اللغة العربية، ليتعرفوا عن كثب إلى مؤلفات الأقدمين من العرب فيأخذوا عنها مباشرة دون المرور بوسيط.

الموسيقى من الفنون التي أثرت في تطور النهضة الأوروبية. وقد أثرت الموسيقى الأندلسية كثيرا في صياغة الموسيقى الأوروبية ، وقد تعددت نواحي هذا التأثير، فبعض الآلات الموسيقية الأوروبية أخذت أسماءها من العربية أو أن معظمها ذات أصل عربي. فآلة العود العربية تسمى" laud" باللغة الأسبانية و" lute" في باقي الدول الأوروبية الأخرى، وذلك آلة القيتارة "guitara" في أسبانيا و"guitare" في باقي دول أوروبيا الغربية. وحتى آلة البيانو اسمها مأخوذ من آلة الشقير العربية.

كما انتقلت الفلسفة وعلم الرياضيات والطب من بلاد الإغريق والرومان إلى بلاد فارس وبغداد ثم إلى

1

أسبانيا ومنها إلى أنحاء أوروبا. انتقلت أيضا عدة فروع من الموسيقى النظرية و العلمية إلى أوروبا، والواقع أن كثيرا من الآلات الظاهرة في الرسوم الأسبانية وصور بعض الأشخاص الضاربين عليها هي دون جدال إسلامية الأصل.[1]

كما تأثر الأوروبيون كثيرا باللغة العربية وموشحاتها وزجلها وقصائدها وغنائها، ولم يتوقف على الفن والموسيقى، بل شمل كثيرا من العلوم و المعارف العربية الإسلامية.

إن الشعر الغنائي الأوروبي المسدس مأخوذ من طريقة الزجل الأندلسي. وقد أثر الشعر العربي على ظهور طبقة " التروبادور" * الذين أخذوا يحاكون منشدي العرب، لا من حيث العاطفة والطبيعة فحسب، بل من حيث الصور و الأشكال نفسها التي أخرجوا فيها أناشيدهم، وقد كانت بعض العناوين التي أطلقها شعراء "البروفينسال" هؤلاء على مقطوعاتهم الغنائية ترجمة لعناوين عربية [2]

كما اقتبس الأوروبيون بحور الشعر الآندلسي وطريقة نظم الموشحات، ونظموا على منوالها واستعملوا قوالبها. وحتى المصطلحات الموسيقية العربية دخلت أشعارهم و ما كلمة "الروندو" إلا ترجمة لموسيقى النوبة تماما، كما يظهر التأثير جليا في كثير من الأغاني الشعبية وفي كلام شعرائهم، أمثال(سركامون* وماركابري*). كما يرجع الفضل إلى العرب في اختراع آلة الرباب ذات القوس الواحد التي انتقلت من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أوروبا، وخاصة البلاد الجنوبية منها كإيطاليا وفرنسا و أسبانيا. ومنذ ذلك الوقت عرفت أوروبا لأول مرة الآلات الموسيقية الوترية ذات القوس. ومن هنا كانت بداية ظهور آلات أسرة الكمان: الفيولا و الفيولونسيل والكونترو باص.

قام الفرنسيون بصناعة آلة تماثل الرباب العربية وسموها: RUBEBE [3] وانتشرت تلك الآلة فعمت أوروبا في القرن 14 م، واخذ التغيير و التطور يتناولها شيئا فشيئا، وصنع منها على مرور الزمن أنواع مختلفة الأحجام من عائلة الكمان، ثم تطورت الفيولا في منتصف القرن 17 م وصنعت آلة أصغر منها حجما أطلق عليها اسم "فيولينة" و تلك هي الآلة المعروفة لدينا باسم الكمان [4].

والراجح أن إدلارد أوف باث الذي درس الموسيقى في باريس هو الذي ترجم رسالة الخوارزمي في مادة الرياضيات، وكان فيها قسم عن الموسيقى. ومن هنا فإن هذه الرسالة هي من أقدم الرسائل التي أدخلت الموسيقى العربية إلى عالم الموسيقى الغربية [1].

لقد أخذ علماء الموسيقى الأوروبية نظرية علم الهارموني عن ابن سينا وذلك من كتابه المنقول إلى اللاتينية في العصور الوسطى، وقد فطن ابن سينا إلى هذه النظرية وذهب إلى أن أفضل تألف صوتي أو هارموني إنما يكون في الجمع بين الأساس وجوابه، أو خامسه ورابعه. وقد استطاع الأوروبيون بعد الإطلاع على كتاب ابن سينا حل رموز النوتا الموسيقية وتدوين السولفيج الموسيقي. وابن سينا صاحب الفضل في ظهور التدوين الموسيقي(النوتة)[2]

كما عرفت أوروبا مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن ماجه الموسيقية، ولم يأت أخر القرن حتى أصبحت أكثر هذه المؤلفات الجديدة معروفة في أووربا بفضل ترجماتها اللاتينية التي وضعت في طليطلة [3].

وقد استعملت المستشفيات الأوروبية في تلك الفترة الزمنية صوتا موسيقيا ناعما يساعد الأشخاص المصابين على النوم. إن هذا النوع من المعاملة للمرضى لم يتوفر في المستشفيات الأوروبية منذ القدم، بل أدخلت هذه الوسائل العلاجية للمرضى في أوروبا بواسطة الأطباء العرب . وقد استعمل ابن سينا هذه الطريقة في معالجة مرضاه.

لقد فتح عصر النهضة الأوروبية الباب لنور العلم و المعرفة وبدأت أعمال الترجمة العربية تنقل إلى الشعوب الغربية الأفكار الحديثة مما أدى إلى التقدم ودخول أوروبا بذلك عهد نهضة علمية وأدبية، وكان لهذا التقدم تأثيره الكبير في أن يأخذ النشاط الترويحي مكانه اللائق حتى أن بعض المصلحين الدينيين الذين كانوا يحرمون النشاطات الترفيهية والرياضية والألعاب، ليس على الكبار فحسب بل على الأطفال الصغار أيضا ، قد أكدوا بصراحة على قيمة الألعاب والرياضة وكذلك الموسيقى والفنون الأخرى.[4]

أقام الأمويون العظام في الأندلس حضارة مشعة راسخة الأركان، شامخة الذرى، ومضت تلك الحضارة في طريق النمو والاكتمال غير متأثرة بالهزات السياسية العنيفة التي توالت على البلاد

1- أنيس النور ...

الإسلامية، وظلت هذه الجزيرة الخضراء زهرة أوروبا اليانعة طوال خمسة قرون تنشر عليها أريجها من كل علم وفن [1]، حيث يتفق المؤرخون المنصفون بأن الحضارة العربية الأندلسية هي الدعامة القوية التي شيدت عليها أسس الحضارة المعاصرة.

لقد أدت الحروب الصليبية إلى إعادة الوحدة الدينية لأوروبا وتنشيط التجارة بين أوروبا والشرق، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الصناعة والزراعة، وبالتالي ارتفاع الدخل القومي، ولم يقف الأوروبيون عند حد التبادل التجاري، بل عمدوا إلى اقتباس بعض المزروعات العربية والصناعات ونقلوها إلى أوطانهم، كما قلدوا بعض الصناعات العربية الأصل مثل: صناعة البارود والأصباغ والزجاج الملون والنحاس والورق الذي لعب دورا مهما في النهضة الأوروبية بعد اختراع الطباعة.

كما أدى استقرار الأوروبيين بالشام و الأندلس إلى اقتباس بعض العادات والتقاليد الاجتماعية، ولعل ما اقتبسه الأوروبيون هو الأخلاق الحميدة، فتهذبت أخلاقهم، الأمر الذي أدى إلى تخفيف حدة التعصب الديني ومهد لهم طريق الاقتباس من عالم إسلامي كان يفوقهم في الحضارة، كما أنهم تعلموا تزيين بيوتهم على الطراز العربي وتنوع الأطعمة. فقد لاحظ الأوروبيون مدى تقدم العرب ولاحظوا بأن ذلك يعود إلى تقدمهم العلمي، لذلك انكبوا على دراسة اللغة العربية والعلوم والفنون المختلفة، ونقلوا التراث العربي العلمي والفني إلى أوروبا، وأنشأوا فيها مدارس لتعلم اللغة العربية تمهيدا لنشر العلوم والفنون ن وذلك منذ القرن 12 م. ثم أدخلت الكتب العربية إلى الجامعات الأوروبية، بعضها ترجم والبعض الأخر درس بالعربية لعدم قدرة لغتهم حينئذ على الاستيعاب، لأنها كانت لا تزال في طور التكوين، وبعضهم ثبت لديه الاعتقاد في تلك الآونة بأن بعض العلوم لا يمكن أن تدرّس إلا بالعربية، لغة العلم والمعرفة، وذلك سعيا لنقل تراث العرب العلمي و الفني إلى أوروبا وترجمته، وشكلت هذه العوامل أهم الأسباب الأولى لقيام النهضة الأوروبية العلمية و الفنية.

خامسا: خصائص ومميزات موسيقى عصر النهضة الأوروبية.

تميزت الحياة في أوروبا خلال القرون الوسطى بمظهرين أساسين:

النظام الإقطاعي وسيطرة رجال الكنيسة. ومع حلول القرن الخامس عشر، حاول المجتمع الأوروبي التخلص من سلطان هذين العاملين، وتفككت أواصر الوحدة الكاثوليكية، وتبلور مفهوم الوطن، فظهرت إلى الوجود دول مثل فرنسا وانجلترا و أسبانيا وألمانيا والمجر، وسيطرت اللغات القومية على حساب اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة الأدب والعلم والدين.

واتسعت دائرة المعارف، وتعددت الاكتشافات، وأبرزها الطباعة. ووجهت التجارة البحرية والاكتشافات ضربة قاصمة للنظام الإقطاعي، وتزايد عدد المدن المستقلة كمدن جنوة والبندقية ومارسيليا وغيرها، وبرزت الطبقة البرجوازية وتغير وجه المجتمع.

وزاد بؤس الحروب والأمراض والمجاعات من نقمة الناس، وشعروا بالحاجة إلى الحرية والانصراف إلى مباهج الحياة ومسرّاتها، وضاقوا درعا بالتقشف وإعداد العدة للحياة الآخرة وإهمال المادة في سبيل الروح. وبدأوا يلتمسّون في الحياة المادية مظاهر جديرة بالتقدير، ونفروا من الملل الذي يعتري حياتهم، وتمرسوا بمظاهر البهجة يحاولون بها نسيان الماضي والهروب من الحاضر فوجدوا في ألوان الطبيعة والنغم الموسيقي والرسم والنحت والشعر والأدب ملاذا جميلا.

لقد خرج الفنان الأوروبي من عنق الدين ساعيا وراء الموضوعات العلمانية والألوان الزاهية، مستوحيا أفكاره الفنية من القديم ليصوغها بقالب جديد. وتشعبت موضوعاته لتعبر عن الفردية في الشعور والحرية المطلقة في التعبير عن النفس، وأضحى الإنسان في ميدان الفن شأنه في ميدان الفكر والأدب، محور النماذج والموضوعات، لأن الفنان مصورا كان أو موسيقيا، فإن فنه يتوقف على إبداع صورة لا ينضب لمحتواها مَعين.[1] وليس من المعقول أن تنبثق النهضة الفنية من لا شيء، فقد ترجع أركانها إلى التراث الإغريقي والروماني القديم، أو ما يسمى بالتراث الكلاسيكي، فاستقوا من معينه مبادئ وموضوعات صاغوها بقالب يلائم العقلية الرومانسية المتحررة، فكانت النهضة الموسيقية الأوروبية ردّة على القرون الوسطى واستقاء من العصور القديمة وتعبيرا بقالب حديث.

قامت الطباعة بدور فعال في نهضة الأدب والفكر والفلسفة، فهي ابتكار بسيط في الظاهر ولكنه ثوري النتائج، واكتشفها ألماني اسمه "غوتمبرغ"* حالي عام 1450 م.[1] فانتهى عهد المخطوطات الباهضة الثمن والمليئة بالأخطاء، وتعددت النسخ عن الكتاب الواحد وعُـــممت الفائدة. ومع الطباعة أيضا بدأ عهد التعليم والفنون بالكتاب و بالنصوص، فكان ذلك أساس ثقافة جديدة هي الثقافة الإنسانية.

وفي القرن الخامس عشر للميلاد، شهدت الموسيقى تطورا ملحوظا من حيث التأليف والتلحين والتدوين، وتحررت من قيود العصور السابقة وظهرت المبادرات.الفردية، وخرجت الموسيقى عن نطاقها الديني و أصبحت تمثل حياة الناس بتمثيل البطولة و الأبطال و الأمراء والعشاق. و ظهرت جماعة التروبادور و التروفيير في فرنسا، حيث ساهمت هذه الجماعة في بناء و تطوير الأغاني الشعبية، فكان هؤلاء المطربين هم حفاظ الشعر و شعراء الأمة حيث أن الروايات و القصص كانت تنشد في فرنسا [2]. في مطلع القرن السابع عشر أخذت الموسيقى الأوروبية تستخدم ألوان النغم المميزة للآلات الموسيقية، و تستعمل متباينات في الأوتار و النفس والأصوات البشرية كوسائل تصوير[3]. و أخذت المذاهب الكلاسيكية تقتصر عامة على تسجيل هذه الثنائية بين فنون المكان و فنون الزمان ، وتصنيف الفنون التقليدي يضع الفنون التصويرية الثلاثة : الفن المعماري والنحت و الرسم مع الفنون الإيقاعية الثلاثة : الرقص و الموسيقى والشعر [4]

وكانت الرومنتيكية المتقدمة مرتكزة جزئيا على التصوير أما الرومنتيكية المتأخرة فكانت معتمدة تماما على الموسيقى.ففي نظر "جوتيه" كان التصوير هو الفن الكامل. وهكذا احتفلت الرومنتيكية بأعظم انتصاراتها في الموسيقى، فقد كانت شهرة "فيبر" و "مايربير" و"شوبان" و"ليست" و"فاجنر" تعم جميع أرجاء أروبا، و فاقت نجاح أعظم الشعراء شعبية[5] .ونستطيع أن نلخص أهم مميزات عصر النهضة فيما يلي:

- تميز هذا العصر بالمبادرة بين الأسلوبين الفلامنكي و الإيطالي، و أصبح اللون وسيلة جديدة للتعبير والتي قدمت في المادريجال الإيطالي المتأخر أفضل ما ظهر عن الحضارة الأرستقراطية الإيطالية.
- ظهور حرية التعبير الغنائي و التحرر من كل قيود العصور السابقة، وذلك بظهور الأوراتيريو* والأوبرا على يد الفنان الإيطالي كلوديو مونتي فاردي.
- و من أهم المؤلفات الموسيقية التي ظهرت في عصر النهضة الأوروبية : الغناء البوليفوني والهارموني ، السوناتة و آلسيمفونية* و الكنتاتا* والمدريجال* و الأوبرا و المقدمة و الأغاني الشعبية و الموتيت وموسيقى الفالس.*
- كما ميز هذا العصرنخبة من عظماء الموسيقى العالمية نذكر منهم: **براهمس وبتهوفن وسترافسكي وبيلابارتوك و ديبوسي و دي لاسو و روسيني و شونبرج و فاردي و هايدن وشوبان وشتراوس وليست وشومان وبرليوز وشوبرت وباخ وهندل** [1]